

قبر أبي العلاء المعري

للأستاذ صبحي الياسيني

كان يوم الجمعة في الثالث من ربيع الأول عام ٤٤٩ للهجرة ، حين حضرت أبي العلاء الوفاة ، وانطفأت تلك الحذوة المتقدة يوماً مشهوداً عند أهل المعرة ، إذ وفد إليها غير الفضلاء والعلماء والخلق الكثير ، أربعة وثمانون شاعراً ، وقفوا حين مواراته الرمس يرثون عبقرية الفذة وعلمه المضيوع

واليوم وقد انقضى ألف عام على مولده يعيد التاريخ نفسه فيقف مثل هذا العدد وأكثر منه من الشعراء والأدباء جاءوا من أقاصى البلاد على قبره ليستعيدوا ذكرى صاحب هذه

للطاعن سبيل إلى عكس معانيها ، وقلوبها وتحريفها عن وجوها المقصودة وسبلها ، ألا ترى إلى كتاب الله العزيز المحتوى على النع والتجويز الذي لا يقبل التبديل في شيء من صحفه ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كيف أحلى جماعة من أرباب باطل الأقاويل ، تأويله على غير وجوه التأويل ، فصرخوا تأويله إلى ما أرادوا ، فما أحسنوا في ذلك ولا أجادوا ، حتى أن جماعة من الكفار ، وأرباب الزلل والشار ، تمسكوا منه بآيات ، جعلوها دليلاً على ما ذهبوا إليه من الضلالات ، فما ظنك بكلام رجل من البشر ، ليس بمعصوم إن زل أو عثر ، وقد تعمق في فصيح الكلام ، وأتى من اللغات بما لا يتيسر لغيره ولا يرام ، وأودعها في كلامه أحسن إبداع ، وأبرزها في النظم البديع والأسجاع ، إذا قصد بهض الحساد ، فحمل كلامه على غير المراد ، وقد وضع أبو العلاء كتاباً وسماه « بزجر الناح » أبطال فيه طعن الزرى عليه والقادح ، وبين فيه عذره الصحيح ، وإيمانه الصريح ، ووجه كلامه النصيح ، ثم أتبع ذلك بكتاب وسماه « ببحر الزجر » بين فيه مواضع طعنوا بها عليه ببيان الفجر ، فلم يمنهم زجره ، ولا انتفع لهم عذره ، بل تحقق عندهم كفره ،

الشعلة المتقدة التي صرت عليها القرون فما زادت إلا وميضاً واستمراراً .

والمعروف أن جثة المعري نقلت إلى ساحة لإحدى دور أهله ودفن بها ، وهي واقعة في الطرف الغربي من المعرة ، وقد كانت هذه الدار في عهده على ما يظهر من انقطاع آثار البناء ووجود القبور الأثرية بثاليتها من الجهة الغربية ، واقعة في أقصى البلدة باتجاه الغرب ، وكانت قبور أهله وبني عشيرته وتلامذته قبل إنشاء الضريح الحالي تحيط به إحاطة السوار بالمعصم ، إلا أنه كما حجب اسمه أسماهم وفضله فضلمهم في حياته ، كالشمس إذا ظهرت غاب كل كوكب ؛ فكذلك حجب قبره قبورهم ، واضطر المهندسون الذين قاموا بتشييد الضريح إلى إزالة القبور الواقعة بجوار قبره ، وحفظت حجارتها وشواهداها في حديقة خلفية لضريح أبي العلاء .

واجترأوا على ذلك وداموا ، وعنفوا من انتصر له ولا مواء ، وقعدوا في أسره وقاموا ، فلم يرعوا له حرمة ، ولا أكرموا علمه ، ولا راقبوا إللاً ولا ذمة ، حتى حكوا كفره بالأسانيد ، وشددوا في ذلك غاية التشديد ، وكفّره من جاء بعدهم بالتقليد فابتدعت دونه مناقلاً ، وانتصبت عنه مجادلاً ، وانتدبت لمحاسنه ناقلاً ، وذكرت في هذا الكتاب :

نسبه ومولده ، وتحصيله للعلم وطلبه ، ودينه الصحيح ومذهبه ، وورعه الشديد وزهده ، واجتهاده القوى وجده ، وطمع الفادح فيه ورده ، ودفع الظلم عنه وصده .

وسميته « كتاب الإنصاف والتجري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري »

وبالله التوفيق والعصمة ، وإليه المرجع في كل وصمة ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

حرصت على نقل هذه المقدمة الطويلة المسجوعة بنصها ليستطيع القارى تكوين فكرة عامة عن هذا الكتاب النفيس ويعرف روح مؤلفه فيه ، وأرجو أن أستطيع تلخيص فصوله التي عثر عليها في قرعة قريية برهانه البرهانه المستأى

ضئيلة كالزاد من فئات عظامه ، وقد صب الآن فوقها الأسمت
لتكون قاعدة قوية تحت حجارة القبر الثقيلة

وقد كان في النية تحت حجارة جديدة لقبره لتقوم مقام
الحجارة الأثرية القديمة وتناسب مع شكل البناء الجديد ،
إلا أنه صرف النظر أخيراً عن هذا العمل بعد القيام به ، وكان
ذلك الأوفق والأنسب .

وكان أمر بناء الضريح تكلفه الصعوبات لعوامل شتى منها
تبدل الحكومات المتعاقبة على البلاد السورية فكان رغبة أبي
المعالي التي أبداه في ترك قبره وعدم الاحتفاء به إذ يقول :
لا تسكروا جسدي إذا ما حل بي

رب المذون فلا فضيلة للجسد

أو يقول :

إن التوايت أحداث مكررة

فجنب القوم سجنًا في التوايت

تحققت بقوة خفية لا يمكن التغلب عليها

إلا أنه تقرر في موازنة الحكومة السورية لعام ١٩٣١
مبلغ من المال كان لبناء الضريح ولم ينفذ المشروع ، كما
أنه تقرر ذلك أيضاً في موازنات الأعوام التالية - ١٩٣٢ -
١٩٣٣ - ١٩٣٧ - ١٩٣٨ ، وأضافوا على ذلك في عام
١٩٣٢ مشروعاً جديداً هو طبع طوابع بريدية موشحة باسم
أبي المعالي يعود ربعها لإنشاء الضريح فنفتت الطوابع والقبر
على ما هو عليه

وكانوا في كل عام يرصدون مبلغاً لإنشاء الضريح ، ولا ينفذ
العمل ، حتى جاء عام ١٩٣٩ ، إذ خصص ١٥٠٠٠ ليرة سورية
في موازنة الحكومة السورية (فصل ٧ مادة ١ فقرة ٤) وتقرر
البدء بالعمل ، وكان ذلك يوم الأحد في ١٨ تشرين الثاني ١٩٣٩
عيداً أهلياً عند سكان المعرة الذين احتفلوا بنفس الوقت احتفالاً
شائعاً بإنشاء شركة كهربائية أهلية مساهمة ، وشركة مياه إذ

يرى التاريخ أن أبا المعالي أوصى أن يكتب على قبره
البيت التالي :

هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد

وهذا البيت ليس له وجود على قبره ذي الكتابة الكوفية
المشجرة ، ولا يوجد على شاهد الضريح سوى الكلمات التالية :
« هذا قبر أبي المعالي بن عبد الله بن سليمان » . وقد عا الزمان
كلمات : « هذا قبر أبي » ، وكتب على ظهر الشاهد :
رحمة الله عليه . وقد وجد بجوار ضريحه حجر مستطيل
الشكل بقياس ٥٠ × ٣٠ مسطر عليه هذان البيتان بخط
ثلث حديث :

قد كان صاحب هذا القبر جوهرة

نفيسة صاغها الرحمن من نطف

عزّت فلم تعرف الأيام قيمتها

فردّها غيرة منه إلى الصدف

وقد علمت من ثقة في المعرة أن هذا الحجر حديث ، جدد
عام ١٩٠٣ يذيل آخر مكتوب بالخط الكوفي أتى عليه الزمان
فجده أهل الفضل .

وقد كان ضريح المعري في وضعه السابق على غير الاتجاه
الصحيح ؛ فكان منحرفاً انحرفاً قليلاً نحو الشمال الغربي ،
وذلك على ما يظهر بسبب الزلازل أو انخفاض الأرض فعدّل
الآن إلى الاتجاه الصحيح .

أما الضريح القديم فقد كان حالة قبيحة من الإهمال ذكرها
مؤرخو المعري حتى قام في عام ١٩٠٣ المرحوم نورس باشا
الحراكبي ، وهو رئيس المعرة في ذلك العهد ، وبني عند قبره
غرفة يعلوها قبة وبجوارها مصلى جعل منه مدرسة للأولاد
كان يقوم بالتدريس فيها شيخ أعشى دائماً كلما مات واحد
قام آخر .

ولما فتح قبره منذ خمس سنوات لم يرفيه من آثاره إلا بقية

ويتعصبون له ، ولا شاعر عندهم أو فيلسوف سباق للمعري
في شاعريته أو حكمته ، وهم أول من يسوق لك الدليل على
ذلك من أشعاره وآثاره

إن بلدة معرة النعمان اعترافاً منها بفضل أبي العلاء
طلعمري عليها تدعو جميع الأدباء والفضلاء لزيارة قبره في المعرة
يوم ٢٧ أيلول ١٩٤٤ احتفاءً منها بمرور ألف عام انقضت
على مولده .

صبي، الياسيني

فانعام معرة النعمان

أنازلت الكهرياء بلدتهم لأول مرة ، وجرت المياه النقية إلى
قسم من دورهم

وكان للظنون أن الأمور أخيراً سوف تسير سيراً حسناً
لولا أن اندلاع الحرب جعل مواد البناء من أسمنت وحديد
مرتفعة الثمن ارتفاعاً فاحشاً . كذلك سارت اليد العاملة تطلب
أجوراً فاحشة ، فاستنكف المتسلم عن البناء ، وقامت الحكومة
بعد أخذ ورد بنقل الإلتزام إلى رجل آخر مع وضع اعتمادات
مالية إضافية تقصاعد حسب ارتفاع الأسعار ، وقد انتهت العمل
في أوائل هذا العام

والضريح في وضعه الحالي عبارة عن فسحة دار
مضروعة بالرياحين يدخل إليها من أروقة محيطة بها من
الغرب والشمال ، وفي صدر هذه الدار قبر أبي العلاء موضوع
تحت إيوان جميل ، وخلف القبر مسجد يدخل إليه من بايين
على طرفي القبر ، ومكتبة على جانب المسجد للغرب ،
وخلف المسجد حديقة صغيرة محفوظة بها الحجارة الأثرية التي
وجدت حول القبر

وقد سبق أن قامت بلدية معرة النعمان بشق وتخطيط شارع
كبير من شرفى البلدة إلى غربها بحيث جعلته يمر مباشرة أمام
ضريحه ، وقد عبدته وجعلت الأرصفة على جانبيه حتى صار من
الشوارع اللائقة بمدينة كبيرة ، واسمه شارع أبي العلاء ، كما
خصصت البلدية قطعة أرض مناسبة في مدخل البلدة لإقامة
نصب تذكاري فيها لأبي العلاء

وقام أهالي المعرة بنصيب طريف من هذا التمجيد ،
فأسموا فندق أبي العلاء ومطعم أبي العلاء ، وهم يملأون
القلل بالماء ليلة الجمعة ويضمونها طوال تلك الليلة بجوار قبره
ليحرقها في اليوم التالي من بلد ذهنه من صبيان المدارس اعتقاداً
منهم أن الذهن يصفو من بلادته بهذا الماء ، وهم يقسمون
بالمعري كما يقسمون بمقام النبي يزعم الموجود عندهم

دار الكتب الاهلية

تشارك في إحياء العيد الألفى للفيلسوف أبي العلاء المعري

نفندم لأول مرة

رسالة الهناء

لأبي العلاء المعري

جزءان في سفر واحد

شرح وتحقيق الأستاذ الكبير

دامل كيموني

الذي حجب الأدب الملائي إلى كل قارى

كما حجب القسراء إلى كل ناشئ

الثنى ٣٥ قرشاً صاعاً - وللهربد ٦٣ ملماً

يطالب من الناشر

دار الكتب الأهلية

ميدان الأوبرا - ت ٤٩٥٦٦

وفي السودان من مكتبة كردفان بالأبيض

وفي العراق من مكتبة الزوراء بسوق السراى بغداد